يدفعه إلى إعادة المعلم حيدرة إلى القرية مرة أخرى ، ويشد من أزره .

مؤثرات ثقافية

ويروي الأستاذ أحمد نعمان بصراحة متناهية أنه بعد تفكير ، وتأمل عميقين، شعر بينه وبين نفسه بأنه مسرور من الذي فعله الأستاذ حيدرة . والحقيقة أنّ الأستاذ نعمان هبت عليه رياح التغيير أو بعبارة أخرى مؤثرات ثقافية جديدة أثرت في رؤيته للحياة بصورة عامة ، والحياة السياسية بصورة خاصة . وفي هذا الصدد ، يقول الأستاذ نعمان : « أصبح المقصود عندي هو التطلع ومعرفة الجديد ، تعلم الجغرافية، والتاريخ وغير ذلك . وحين بدأت ، وقع في يدي كتاب(طبائع الاستبداد) لعبد الرحمن الكواكبي ، وكتاب (هدي الرسول) لمحمد أبو زيد . وكنت قد انتقلت من كتب الفقه إلى مرحلة السُنة إلى الفكر الإسلامي الخالص . الدراسة الأولى كانت دراسة إسلامية ولكن محشوة بالخرافة. فانتقلنا إلى مرحلة الديانة الإسلامية المجردة من الخرافة « . ويمضي في حديثه : « وجاء كتاب (طبائع الاستبداد)، وكتاب (هدي الرسول)، وإذا بنا ننتقل إلى الحكم والسياسة إلى طبائع الاستبداد وطبائع المستبد . المستبد هو الذي يريد يضع قدمه على أفواه الملايين ... «. وعندما أدرك الأستاذ أحمد خطأه الفادح في حق الأستاذ حيدرة عمل على إعادته ، وأعد له منزلا لائقاً، وحشد له التلاميذ ، « وأطلق لهم الحرية . وقام هو بتدريس اللغة العربية بأسلوب حديث .

روحه المتمردة

والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل رياح التغيير الثقافي أو التيارات الثقافية التي هبت على الأستاذ نعمان هي من العوامل الرئيسة التي غيرت من رؤيته للأوضاع والظروف السياسية في اليمن أمّ إن هناك أسباباً أخرى ؟ . والحق يقال ، أنّ الأستاذ نعمان ، كانت روحه الوثابة والقلقة ، والمتمردة الأرض الخصبة الصالحة وعلى استعداد كامل لتقبل بذور المعارضة الحقيقية و الوقوف في وجه الاستبداد أيًا كان شكله أو لونه . وعندما صافحت عيناه الحياة الثقافية الجديدة زادت من قوة وصلابة روحه ونفسه الصمود والتصدي للظلم والظالمين . وهذه الميزة في الأستاذ أحمد سنجدها دائمًا معه لا تفارقه ولذلك عندما ظهر له أنّ بعض الانتهازيين يريدون أنّ يستفيدوا من ثورة السادس والعشرين من سبتمبر المجيدة لأغراضهم الخاصة تصدى لهم بكل صلابة وقوة . والحقيقة أنّ الأستاذ نعمان كان يرى أنّ مصلحة اليمن فوق أي اعتبار ولذلك نجده يدخل في خصام شديد مع القيادة السياسية في الجمهورية العربية المتحدة (مصر) حينذاك وعلى رأسهم الرئيس جمال عبد الناصر ما دفع الأخير أنّ يزج به في السجن الحربي بمصر بسبب صراحته وجرأته على تصرفات القيادة المصرية في أثناء حرب اليمن والذي كان يرى الأستاذ نعمان أنّ مصر عبد الناصر يجب ويتوجب أنّ تكون فوق الشبهات . وكان دائمًا مؤمنًا بأنّ المسألة اليمنية لن يحلها سوى أبنائها ولهذا السبب أو الأسباب دخل في خصومات حادة مع كبار المسئولين المصريين ومن بينهم الرئيس أنور السادات الذي كان المسئول عن ملف اليمن ، وكان وقتها رئيسًا لمجلس الأمة المصري والذي لم يكن يعرف عن عوامل اليمن الطبيعية والبشرية شيئاً . والحقيقة أنّ روح الأستاذ نعمان لم تكن روحاً متمردة من أجل التمرد ، وإنما كانت متمردة من أجل إرساء دعائم الحق ، والعدالة ، والحرية في تراب اليمن العزيز .

مدرسة الحجرية

في حدود سنة 1935م ، أسس الأستاذ نعمان مدرسة الحجرية ، وكانت هذه المدرسة شمعة مضيئة في ظلام ليل اليمن الدامس . فقد كانت تدرس المواد التعليمية الحديثة من جغرافية ،تاريخ ، و حساب ولم تمض شهور معدودات حتى اشتهرت المدرسَة في قرية ذبحان والقرى المجاورة لها واقبل التلاميذ عليها من كل مكان . وترامت شهرتها أو قل إذا شئت خطورتها إلى مسامع سلطات الإمام يحيى الاستبدادية فحامت حولها الشكوك من قِبل سلطات الإمام بأنها تخرب عقول الصغار ، وتدمر نفوسهم ، ولغرض القضاء على هذه المدرسة التي تدرس المواد العلمية على الطراز الحديث ، أرسلوا الأمير القاسم بن الإمام يحيى حميد الدين ليطلع على حقيقة أوضاع المنهج التعليمي للمدرسة الحجرية . وكانت من نتائج زيارة الأمير القاسم ، أنّ تم طرد الأستاذ حيدرة الذي تحدثنا عنه والذي بذر بذور المنهج التعليمي الحديث في مدرسة الحجرية أو بعبارة أخرى فتح آفاقاً واسعة وجديدة في أذهان التلاميذ في قضاء الحجرية بتعز . وفي هذا الشأن ، يقول الأستاذ أحمد نعمان : « وذهب (أي الأمير القاسم) إلى الإمام الذي أمر بسحب الأستاذ حيدرة فأخرجوه حالاً ، وأتوا بمعلمين آخرين إلى المدرسة ، بعد هذا الحادث سحبت نفسي وقررت أنّ أذهب إلى الحج . وكانت بعثة مصرية ، قد جاءت إلى اليمن زارت بعض مناطق اليمن ، ووصلت إلى المدرسة ، وأعجبت بها وكتبت عنها . سمعوا التلاميذ يخطبون ويدردشون وأعجبوا بهم» . ونستخلص من ذلك أنّ الأستاذ نعمان وجد أن أفضل وسيلة لمحاربة سلطات الأمام يحيى القمعية هو التعليم ، فهو أمضى سلاح وهو الذي سينقل اليمن من التخلف إلى التقدم في مختلف نواحي الحياة . ولذلك ركز جهوده في تأسيس المدارس التي تفتح آفاقاً واسعة ورحبة للتلاميذ من خلال الدروس العلمية الحديثة وبذلك يصبح الجيل الجديد قادرًا على تحمل المسئولية في قيادة البلاد إلى بر الازدهار ، والرخاء ، والخير ، والتقدم ، وقبل هذا كله نشر أنوار فجر الحرية في سماء اليمن .

في مصر

قرر الأستاذ أحمد نعمان بعد الحج أنّ يلقي عصا التر حال في مصر أم الدنيا لينهل من ثقافتها الرائعة ، و معارفها الكثيرة ، وعلومها الحديثة . فحاول الدخول في جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليًا) ولكنه رفض طلبه بسبب عدم وجود الشهادات العلمية التي تؤهله للقبول بها . وتوجه بعد ذلك إلى الأزهر الشريف للحصول على الشهادة العلمية منها ، ويحكي الأستاذ نعمان كيف امتحن في الأزهر ، فيقول : « ذهبت إلى الأزهر . استقبلت هناك وامتحنوني . وكان الامتحان قراءة آيات من القرآن . أخذت أقرأ ، ولما قرأت دهشوا . وقالوا ما شاء الله بارك الله فيك . قالوا لي : هل تعرف اللغة العربية والنحو ! . قلت لهم : أعرف ولكن ليس مثلكم . فقالوا لي : يجب أنّ تنتسب حالاً ، وسجلوا اسمي ودخلت الأزهر » .

مع جريدة « الشورى » الفلسطينية

وانطلق الأستاذ نعمان كالفراس في ميدان الصحافة ، وظهرت مواهب قلمه في صفحات جريدة (الشورى) لصاحبها ورئيس تحريرها الصحفي الفلسطيني الكبير أبو الحسن محمد علي الطاهر والذي أسسها في يافا بفلسطين سنة 1924م . وفي مكتب (الشورى) التقى بعدد غير قليل من الكتاب والأدباء الكبار مصريين وعرب ومنهم أمير البيان شكيب أرسلان الذي توثقت علاقته به لدرجة أنّ الأخير طلب من الأستاذ نعمان وهو في سويسرا أن يسافر إليه ليعلم أبناءه اللغة العربية ولكن حالت الظروف ذلك . وكيفما كان الأمر ، فقد كسب الأستاذ نعمان ثقة وتقدير الصحفي الفلسطيني الطاهر . وكتب الأستاذ نعمان على صفحات « الشورى « الأوضاع اليمنية الصعبة والقاسية التي تعيشها من جراء حكم سلطة الإمام الاستبدادية ، ولكن لم يذيل مقالاته باسمه ، فقد ظنت سلطات الإمام أنّ الذي يكتب هذه المقالات عن اليمن هو الصحفي أبو الحسن الطاهر . ويروي الأستاذ أحمد نعمان قصته مع جريدة « الشورى « ، فيقول : « ومنذ ذلك الوقت بدأت أكتب القصص عن أوضاع اليمن ، فيقوم أبو الحسن بنشرها في جريدته . وعرف في اليمن بأنه هو الذي ينشر هذه القصص ، وفرحت أنا بذلك لأنه يجنبني وأسرتي عقاب الإمام ومسؤوليه في المنطقة « . ويذكر الأستاذ نعمان عن رسوبه في امتحان الأزهر بسبب اهتمامه الكبير في كتابته عن اليمن في صفحات جريدة « الشورى « وصار الأستاذ نعمان من المحررين الرئيسيين الذين يعتمد عليهم أبو الحسن الطاهر في الأشراف على مقالات ، وكتابة عناوين الجريدة. ولكن في الأخير استطاع الأستاذ نعمان أنّ ينال إجازة الأزهر الشريف .

مع رفيق درب النضال

وفي مصر جاء الشاعر رائد الحرية الشهيد محمد محمود الزبيري وهناك التقى بالأستاذ نعمان وقد رأيا أنّ الأوضاع والظروف السياسية في اليمن تتدهور يوماً بعد يوم . وأكبر الظن أنّ الأستاذ نعمان ، والشاعر الزبيري ، قد عزما أنّ يرسيا في اليمن مبادئ الحرية وإخراج اليمن من عزلتها الخانقة ، وأنّ تأخذ بأسباب الرقي والتقدم . وعلى الرغم من أهمية اللقاء بين الأستاذ نعمان ، والشاعر الشهيد محمود الزبيري في مصر إلاّ أنّ صفحات المذكرات تصمت عن الحديث عن تلك الفترة الهامة من تاريخهما أو بعبارة أخرى عن البدايات الأولى في نضالهما في الحركة الوطنية . ومن المحتمل ، أنّ لقاء الأستاذ نعمان والزبيري في مصر ، كانت القاعدة الأولى والصلبة التي انطلقا منها لخروج اليمن من النفق المظلم إلى الآفاق الرحبة من التطور ، والتقدم . ومن اللافت للنظر ، أنّ الشاعر الزبيري لم يأت ذكره على صفحات جريدة « الشورى « أو بعبارة أخرى لم يذكر الأستاذ نعمان من قريب أو بعيد أنّ محمود الزبيري التقى بصاحبها ورئيس تحريرها أبو الحسن الطاهر ، وكتب في صفحاتها على الرغم أنّ الزبيري ، شاعر مجيد ، وكاتب كبير ، وأديب بارع . وكيفما كان الأمر ، فإنه من الأرجح أنّ الأستاذ نعمان ، والزبيري ، قد قررا أنّ يوقظا اليمن من سُباته العميق ، وينفضا عنه غبار الجهل ، والكسل ، والخمول . وكانا (دون شك) يدركان خطورة ما هما قادمان عليه ولكن كان الهدف مقدساً وأسمى ، ولا بد من التضحيات من أجله بكل غالٍ ونفيس .

مخادعة إمامية

في سنة 1938م ، تولى ولي العهد أحمد إمارة تعز الذي سيصير إمامًا في سنة 1948م ، بعد مقتل والده الإمام يحيى وفشل الحركة الدستورية ، وكان يتقرب من الأدباء ، والمثقفين والمفكرين الذين يجلسون في مجلسه . وهذا ما أكده الأستاذ نعمان ، قائلاً : « كان يغري الشباب ويستميلهم ويغري الكتاب ، والأدباء» . والحقيقة لقد أثبتت الأيام أنّ ولي العهد لم يكن في يوم من الأيام حفيًا بإدخال الإصلاحات في اليمن ، وكان يضيق صدره بالرأي الآخر . والحقيقة كان هناك تنافس شديد بينه وبين سيف الإسلام عبد الله بن يحيى على جذب الأدباء ، والكتاب ، والمثقفين إلى جانبهما . ولقد أكلت الغيرة قلب ولي العهد أحمد عندما أصدر السيف عبد الله جريدة « الحكمة اليمانية» سنة 1938م . وفي هذا الصدد ، يقول الدكتور سيد مصطفى سالم : « ... ظل موقف السيف عبد الله من المجلة موقف المتبني لها ليظهر بالمظهر المتحرر أمام الأحرار والمثقفين ، وجرهم إلى صفه المنافس لأخيه سيف الإسلام أحمد ... « . وفي موضع آخر ، يقول سيد سالم : « ففي الوقت الذي تحمس فيه السيف عبد الله لإصدار ((الحكمة)) ، والتقرب من الشباب والمثقفين في صنعاء ، كان السيف أحمد يستقطب أيضاً في تعز الأدباء ، والشعراء ، والمثقفين ، الذين كانوا يجدون فيه ـ أو يأملون فيه على الأقل حينذاك ـ وجه المستقبل الأفضل ، فقد حاول هناك أنّ يجعل من نفسه حارسًا ومشجعًا للأدباء ، والمفكرين ، فأوى إلى مقامه (أي ديوانه) الكثير من اللامعين مثل الموشكي ، والحضراني ، والفسيل ، والشامي ، والأستاذ نعمان ، والزبيري ، والمعلمي ، والعنسي وغيرهم ، ولذلك لم يعارض ظهور المجلة ، بل تمنى لو صدرت بتعز « . ولقد انتهت قصة التنافس الحاد بينهما بصورة مأساوية عندما حاول سيف الإسلام عبد الله الإطاحة بالإمام أحمد من سدة الحكم ، ولكن فشلت محاولته ، وقتل بيد سيف أخيه أحمد ، وعرفت تلك الحركة بحركة الثلايا سنة 1955م .

من عدن اندلعت حركة 48م

قلنا سابقاً : أنّ ولي العهد أحمد بن يحيى ـ حينذاك ـ لم يكن حفيًا ، وصادقا بإدخال إصلاحات جادة في اليمن لتكون في مصاف الدول العربية المتحضرة مثل مصر ، العراق ، وسوريا . وكان يخفي وراء حقيقته البشعة قناعاً من الزيف ، والأباطيل ، والدكتاتورية . وفي الوقت الذي كان الناس يشكون الأمرين من الفقر ، والفاقة بسبب شحة الأمطار ، وحصار السواحل اليمنية من جراء الحرب العالمية الثانية ، كانت الضرائب تلاحقهم وتثقل كاهلهم ما كانت تزيد من آلامهم . وفي هذا الصدد ، يقول : الأستاذ نعمان : « ... كان بعض زملائي مثل الزبيري ، وزيد الموشكي وغيرهما يشكون نفس الشكوى لأنهم يشعرون مع الناس بكل هذا . فبدأ الإمام يرتاب على الرغم من أنه كان يوجد بينه وبيننا ود ومجاملات وإعجاب . ولكن حينما تأتي فكرة إصلاح ، كان ينفر منها نفورًا كبيرًا ، ينفر من أية فكرة إصلاحية أو من إبداء رأي . ويبدو أنّ الأستاذ نعمان ، والزبيري ، وزيد الموشكي وغيرهم رؤوا أنّ محاولة التغيير في اليمن على يد ولي العهد أحمد باتت غير مجدية ولذلك قرروا الفرار إلى عدن التي كانت نافذة اليمن على العالم . والمتوهجة بشتى التيارات الثقافية المختلفة . ومن هذه المدينة الساحرة الساحلية المتحكمة بمدخل جنوب البحر الأحمر ، رفع الأحرار اليمنيون الأستاذ نعمان ، والزبيري ، وغيرهما لواء التجديد والتغير والثورة على سلطات الإمام يحيى الاستبدادية . وشكل الأستاذ نعمان ، والزبيري « حزب الأحرار اليمنيين « وبعدها « الجمعية اليمنية الكبري» ، وأصدرا مجلة « صوت اليمن « . وكانت تلك الأمور من الأسباب الرئيسة في التمهيد للحركة الدستورية سنة 48م في اليمن . وما عرضناه عن قصة حياة الأستاذ نعمان رائد الحركة الوطنية قليل من كثير الذي ضحى بكل غالٍ ونفيس لتكون بلاده اليمن في مقدمة الأمم مثلما كانت في مقدمة الأمم في فجر أنوار الحضارة الإنسانية .

الهوامش :

مذكرات أحمد محمد نعمان ، مراجعة وتحرير : الدكتور علي محمد زيد ، الطبعة الأولى 2003م ، مكتبة مدبولي 6 ميدان طلعت حرب ـ القاهرة

دكتور سيد مصطفى سالم ؛ مجلة « الحكمة « اليمانية 1938 ـ 1941 : جمع المقالات : علي أحمد أبو الرجال ، الطبعة الأولى 1425 هـ / 2004م ، وزارة الثقافة والسياحة ـ صنعاء ـ الجمهورية اليمنية .

عدد خاص يصدر عن صحيفة

14 أكتوبر 14 OCTOBER

بمناسبة أعياد الثورة اليمنية الخالدة